المحاضرة الثالثة : المستويات التعليمية للغة العربية

كل بناء سليم يجب أن يبني على أسس سليمة. ومتى ما وجدنا خللاً في البناء المعرفي لمتعلم اللغة العربية، في أي مستوى من مستوياتها، فلنعلم أن له أسباباً قديمة ترجع إلى الخلل في تعلم وإتقان الأسس التي تقوم عليها. وبناءً على ذلك فمن المهم أن نعرف هذه المستويات درجةً درجةً. ومستويات تعلم اللغة العربية يمكن أن نرتبها كما يلي :

- مستوى الأصوات اللغوية ورموزها.

- مستوى الكلمات وكيفية صياغتها واشتقاقها.

- مستوى الجملة وكيفية تركيبها وترتيب أجزائها.

- مستوى النص وكيفية فهمه.

- مستوى الأسلوب وفيه يتعلم المتعلم كيفية الاستمتاع بالنصوص ونقدها.

أولاً : مستوى الأصوات اللغوية

وفيه يتعلم المتعلم التمييز بين مختلف أصوات اللغة، قارناً فيه بين الصوت اللغوي والرمز الذي يرمز إليه والتدرّب على كتابته. ومن الجدير بالذكر التنبيه إلى أن كفاءات تعليم الأصوات اللغوية متنوعة، سواء عن طريق البطاقات أو عن طريق الألواح أو عن طريق العرض على السبورة. فهذه كلها طرائق مناسبة. ويجب التنبيه إلى أن تنوع هذه الطرائق، والتبديل فيما بينها وتكرار العرض، كلها عوامل مساعدة على التعلّم السريع. ومن الأحسن أن تقترن الأصوات اللغوية في أذهان الأطفال بمجموعة من الكلمات المرجعية، وخاصة إذا كانت هذه الأصوات تقع في بداية الكلمة، مثل : ألف - أسد، باء - بقرة، تاء - تمر. وهكذا.

ويجب ملاحظة وجوب التفريق بين الأصوات المتقاربة ورموزها، كالسين والصاد، كما في : السور والسبورة، فهذه الكلمات بالسين وليست بالصاد، وإن كان الصوت المنطوق هو الصاد وليس السين، وذلك بسبب الصوت الذي جاورها، وهو الراء. وكذلك فيما بين الدال والذال، والضاد والظاء. وغيرها من الحالات.

ويفضي بنا الحديث عن الأصوات اللغوية إلى الحديث عن التغيرات التي تطرأ على هذه الأصوات عندما تدخل في التركيب. فأداة التعريف، التي لها صورة واحدة هي الألف واللام، لا تنطق على نحو واحد؛ فهي تدخل على بعض الحروف فتُحَقَّق فيها اللام تحقيقاً كاملاً، وهي التي تسمى الحروف القمرية، كما في كلمات : القمر، الفأس، الكتاب. أما الحروف الأخرى فلا يُنطق باللام، ولكن ينطق بالحرف الأول من الكلمة مشدّداً، وهذا يعني أنه جرى قلب اللام إلى صوت مجانس لصوت الكلمة فأدغم فيه، وهي التي تسمى الحروف الشمسية، كما في كلمات مثل : الشمس، الرأس، السعادة. وغيرها.

وهناك ظواهر أخرى مثل القلب كأن يأتي صوت الباء بعد النون ساكنة فينطق ميمًا، كما في الأنباء والأنبياء، أو الإدغام بين الحرف الأخير والحرف الأول من كلمتين متعاقبتين، كما في تعاقب النون والياء في قولك : ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه. فالنون الساكنة من حرف الشرط تقلب ياء ساكنة لئُجانس الياء التي تليها، وتدغم فيها. وتنطق الكلمتان وكأنهما كلمة واحدة، هكذا : وميَعْمَل من الصالحات.

وعلى كل حال فإن الأمثلة عن الصوت اللغوي كثيرة ومتنوعة. وعلى معلم اللغة العربية أن يتسلح قدر الإمكان بالمعلومات عن كيفية إنتاج الصوت اللغوي وخصائصه والتغيرات التي تطرأ عليه أثناء الاستعمال. وقد فصلت كتب علم الأصوات والصرف في ذلك تفصيلاً دقيقاً.

ثانياً : مستوى الكلمة المفردة

إنتاج الكلمة المفردة يتأتى من تركيب الأصوات اللغوية بعضها مع بعض. وأهم ملاحظة يقف عليها دارس اللغة العربية هو أنها لغة اشتقاقية، وهذا يعني أنّ بناء الكلمة المفردة فيها يخضع لقواعد قياسية مطّردة، في الأغلب. ولذلك فإن الوقوف على هذه المقاييس هو مما يسهّل عملية التعلم بصورة أسهل. فصيغة اسم الفاعل أو اسم المفعول أو اسم الآلة أو اسم الزمان أو اسم المكان، هي كلها قوالب جاهزة، ما على المتعلم سوى أن يضع فيها أي مادة لغوية فيحصل بالتالي على ثروة لغوية لا حصر لها. فمادة الكاف والتاء والباء (كتب)، على سبيل المثال، تستطيع بكل سهولة أن تحصل منها على : كاتب (اسم فاعل)، ومكتوب (اسم مفعول)، ومكتب ومكتبة (اسم مكان)، وكتاب (اسم شيء).

وبناء على هذه الأساس فمما يسهل على المتعلم كيفية استعمال هذه الكلمات هو ربط الصيغ اللغوية (البنى الصرفية) بدلالاتها العامة. وهذه الدلالات العامة هي ثروة المتكلم الحقيقية، والقصور فيها هو قصور في استعمال اللغة. ومن هنا فمن المهم أن يعرف المتعلم صيغ المبالغة، وصيغ التصغير وصيغ النسبة وصيغ الجموع، والصفة المشبهة، وغيرها من الصيغ وكيفية استعمال هذه الصيغ في الحديث العادي. أو في قراءة وفهم النصوص. على أن هذه الصيغ الصرفية قد تشترك في المادة والدلالة العامة، وتختلف في الدلالة الاستعمالية الدقيقة. ولذلك من المهم أن يتعلم المتعلم القدرة على التمييز بين : رحمان ورحيم، وعطشان وعطش. وهكذا.

ثالثاً : مستوى تركيب الجملة

وفي التراث اللساني العربي ثروة ضخمة من المؤلفات التي تعنى بتركيب الجملة اللغوية. وكتب النحو زاخرة بالتفاصيل الدقيقة التي تعنى بكل شاردة وواردة فيما يتعلق بتحليل الصيغ النحوية. وبناء على هذه الملاحظة فليس من الحكمة أن يُشغل متعلم اللغة العربية بالتفاصيل الدقيقة للمسائل النحوية. وكلما مال المعلم إلى كيفية استعمال اللغة

كان ذلك أفيد للمتعلم. ولذلك فإن مسألة أسبقية المصدر على الفعل أو أسبقية الفعل على المصدر، مما تجد له مجادلات مطولة في كتب النحو؛ هذا الأمر لا أهميته له في تعليمية التركيب اللغوي، والأهم منه هو كيفية تركيب الجملة تركيباً سليماً، واستعمالها استعمالاً مناسباً. ويبقى للمتخصصين أسبابهم الموضوعية في تحري الحقيقة العلمية.

كما تجدر الإشارة إلى أن كيفية تركيب الجملة اللغوية في اللسان العربي قد تختلف في كثير من نواحيها عن كيفية تركيب الجملة اللغوية الحديثة. ولذلك فمن الجيد أن تلاحظ أن في العربية صنفين من الجمل: جمل اسمية تبدأ باسم على وجه الأصاله قابل للحكم عليه، وهي الجمل الاسمية. وجمل تبدأ بفعل هي الجمل الفعلية. في الوقت الذي تعرف أغلب اللغات الأوروبية نوعاً واحداً من الجمل هو الجمل الاسمية، وفيها يستعين المبتدأ بأفعال مساعدة للتوصل إلى الخبر. (je suis malade, nous sommes ici = I'm sick, We are here). ونحن نلاحظ أن تأثير هذه اللغات على اللغة العربية بحكم الاستعمال ووسائل الإعلام وغيرها، واضح جداً. وهكذا فأنت لا تقول: الأستاذ دخل إلى القسم، التي تكافئ في الفرنسية (Le professeur a rentré dans la classe)، ولكن تقول: دخل الأستاذ إلى القسم. بتقديم الفعل. مع العلم أن الجملة الأولى (الأستاذ دخل إلى القسم) صحيحة نحويًا. والفرق هو في الاستعمال المرتبط بالقصد، لا غير. كما لا تقول أيضاً: نوقش القرار من قبل أعضاء المجلس. لأن صيغة الفعل المبني للمجهول لا تستدعي الفاعل في العربية، وإنما تكتفي بنائب الفاعل فقط، فتقول: نُوقِشَ القرارُ، أو ناقش أعضاء المجلس القرارَ. بينما في اللغات الأوروبية يذكر الفاعل بعد صيغة الفعل المبني للمجهول: (La décision a été prise par le directeur)، مثلاً.

ومن جهة أخرى تتفاير دلالات التراكيب اللغوية العربية بشكل واضح لأدنى تغيير في التقدير والتأخير، على عكس اللغات الأوروبية. ولذلك فإن جملاً مثل: (أعطى زيدٌ عمراً كتاباً)، و(أعطى عمراً زيدٌ كتاباً)، و(زيدٌ أعطى عمراً كتاباً)، و(عمراً أعطى زيدٌ كتاباً)، و(كتاباً أعطى زيدٌ عمراً)، وهي جمل تبدو في ظاهرها ذات صيغة واحدة، هي في الحقيقة صيغ متعددة لها دلالات متغايرة بحسب رتبة الكلمة من جهة التقديم والتأخير، وبالتالي نستطيع أن نحكم أن قصد المتكلم في كل واحد من هذه الاستعمالات يختلف عن الآخر. وهذه الصيغ المتعددة لا تكاد تجد لها إلا صيغة واحدة أو صيغتين في الفرنسية أو الإنجليزية: (Zaid a donné un livre à Amr)، أو (Zaid gave Amr a book). إن معلم العربية في هذه الحالة مطالب بأن يقف على الفروق الدقيقة بين التعابير المتشابهة، لأن هذا الوقوف هو في الحقيقة تمييز بين مقاصد متباينة للمتكلم. ومن حق المتكلم على المخاطب أن يفهمه كما يريد هو، لا كما يريد المخاطب نفسه. وتجد في كتب البلاغة القديمة كدلائل الإعجاز وأسرار البلاغة نماذج عديدة لبراعة اللغة العربية في التدليل على معانيها، وذلك بانتقاء تركيب لغوي بعينه.